وزارة التعلم العالي/ جامعة المثنى
كلية التربية الاساسية/ قسم التاريخ
العام الدراسي (2024-2023)

المادة: فلسفة التاريخ (الكورس الاول)
المرحلة الثالثة
استاذة المادة: م د ريام غانم نجيب

المحاضرة السابعة

نظرية عبد الرحمن بن خلدون في التاريخ

أولا: موجز سيرة ابن خلدون

ولد عبد الرحمن بن خلدون في تونس سنة 732هـ/ 1332م، أي زمن الدولة الحفصية، من أسرة عربية إسبانية يرجع نسبها إلى قبيلة كندة المشهورة. كان جدّ هذه الأسرة قد هجر اليمن إلى إسبانيا. وقضى بن خلدون طفولته في تونس قبل أن يبدأ تنقله بين المُدن في المغرب العربي وبلاد الأندلس واعتكف وهو بالمغرب للدراسة، عرف بذكائه وقوة فطنته، تقلّد عدداً من المناصب الرفيعة في فاس، ثم هجرها إلى غرناطة، حيث انخرط في خدمة السلطان محمد الخامس سنة 1361م، وأوكل إليه السلطان مهمة التوسط في الصلح بينه وبين بلاط الكاستيل.

وبعد سنتين، عاد ابن خلدون إلى المغرب، وشغل فيها وظائف مختلفة إلى أن اعتزل العمل، وسكن قلعة ابن سلامة، وتقع شرقي تلمسان، حيث أخذ يضع مؤلفه في التاريخ، الذي يعرف ب**(العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)** وقد بقي هناك في القلعة حتى سنة 1378م.

وفي سنة 1384م، انتقل الى القاهرة وبأمر من السلطان المملوكي الظاهر برقوق، بعد ان عينه رئيساً للقضاء في الأزهر، أنهى مقدمته الشهيرة قبل هجرته إلى مصر ومنها توجّهَ لأداء فريضة الحج . ثم انكمل الأربع والعشرين سنة الأخيرة من عمره بمصر تحت حكم المماليك، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر في اتجاه الريدانية أو العباسية الآن.

اتسم عصر بن خلدون بالتخلف بعد أن ضاقت فرص التعليم، ورافق ذلك التخلف تداعي مؤسسة الدولة منذ أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيث أصبحت الخلافة تحت رحمة القادة الترك من البويهيين والسلاجقة، وانتهت أخيراً بالهيمنة المغولية.

واشتهر إبن خلدون بدراساته الاجتماعية العلمية التي عرض من خلالها حقيقة المجتمع الإنساني، وطبيعة الإنسان، وعلاقتها بتكوين الجماعة والنظام الاجتماعي، ودرس العلاقة المتفاعلة، ويعتبر إبن خلدون الباحث الاجتماعي الأوفر حظًا بين أبناء بلدته من العرب والمسلمين ومن العلماء والباحثين الغربيين.

يعد إبن خلدون من أشهر علماء الاجتماع التاريخين الذين يؤمنون بحتمية تغير المجتمع من نمط إلى آخر، فالمجتمع بالنسبة له كالكائن الحيواني **يولد، وينمو، ويتكامل، ويضعف، ويموت**، وهو في حركته التحولية.

أما مؤلفاته فأن ما وصل إليها هو ثلاثة كتب فقط، جمعت على شكل محاضرات خلال حياته، وهي:

1-لُباب المحصل في اصول الدين

2-شفاء السائل وتهذيب المسائل

3-تأريخ بن خلدون، والمسمى كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر**، ويقع على سبعة اجزاء والجزء الثامن للفهارس، الجزء الاول سمي بمقدمة بن خلدون، وفيها تكلم عن رأيه في التاريخ وفلسفة التاريخ ودون نظرية النشوء التاريخية. وهو ما يكون محط دراستنا هنا.

ثانيا: فلسفة التاريخ عند بن خلدون

التاريخ عند ابن خلدون هو خبر عن الاجتماع الإنساني الذي، فهو يرى ضرورة الاجتماع الإنساني؛ لأن الإنسان مدني بالطبع - بحسب تعبير الحكماء - أي اجتماعي، وهو معنى العمران. ولابد من اجتماع قدرة الأفراد - كل بحسب وظيفته ومهارته ومنفعته - لتيسير الحصول على أسباب العيش والمنافع والخدمات، والتمكن من الدفاع عن النفس ودرء الأخطار. فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم.

وحصول هذا الاجتماع يستلزم أمر ضروري، وهو وجود حاكم أو سلطان (وازع) يدبر أمره ويحفظ أمنه ويحقق الانتظام فيه. ويقول ابن خلدون بهذا الصدد: فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم...، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له الغلبة والسلطان واليد القاهر حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. وهذا هو معنى الملك.

والمتحصل مما تقدم أن عمران العالم أو الاجتماع الإنساني يقوم على ركيزتين: أولهما: ضرورة الاجتماع الإنساني. والثانية: لزوم وجود الوازع (السلطان).

وصنف بن خلدون العوامل المؤثرة في الاجتماع الإنساني وأحواله العارضة، وتقع على نوعين أساسيين هما:

أولاً - عوامل بيئية وجغرافية تتحكم بها الطبيعة الجغرافية، لها أثر مباشر في العمران منها :

1- المكان وموقعه الجغرافي : فكلما كان المكان معتدل المناخ بعيداً عن المناطق التي يعمها البرد والجمد معظم السنة، وبعيداً عن المناطق الشديدة الحرارة؛ كان سبباً مباشراً لقيام العمران وتطوره.
2- وفرة الماء وشحته يعد الماء عنصراً ضرورياً لحصول الاجتماع الإنساني وقيام العمران، فكلما شحت المياه تضاءلت فرص نشوء العمران، وكلما توفرت زادت الفرص.
3- صعوبة الأرض وسهليتها : فكلما غلبت صعوبة على الأرض قل عمرانها، وكلما كانت سهلة كان مدعاة لحصول العمران.
4- الهواء: يولي ابن خلدون للهواء أهمية كبيرة، ولا سيما من حيث أثره في المكان، بل ومن جهة تأثيره في ألوان البشر وأخلاقهم وأمزجتهم وتكوينهم وتصرفاتهم.
5- الخصوبة والقفر : فكلما كانت الأقاليم تتميز أراضيها بالخصوبة كانت مدعاة لخصب العيش بما توفره من منابت وحبوب ومزروعات ومن ثم يكون هذا سبباً مؤثراً في قيام العمران، وكلما كانت الأرض مقفرة تكون أبعد عن العمران، فضلاً عن تأثير ذلك في أبدان الناس وأخلاقهم وصحتهم.

ثانياً : عوامل ذاتية ويمكن تمييز ثلاثة أنواع منها :

1-العادات والتقاليد والاقتداء من قبيل اعتياد نوع المأكل والملبس والمركب ومخالطة الناس، واعتياد الشجاعة، والجبن، والقرب من الخير، والاقتداء بالسلطان، والغالب أن هذه الأحوال والعوائد لا تدوم على وتيرة واحدة.

2- العصبية يرى ابن خلدون أن العصبية أساس الملك؛ فإنها ثمرة النسب، والروح المثيرة للغيرة والتناصر، وبها يحصل الاتحاد والالتحام ، وهي عند أهل البوادي أظهر منها عند أهل الحواضر.

3- الدين : أشرنا في التذنيب المتقدم إلى أن ابن خلدون يرى عدم ضرورة الدين لقيام العمران والاجتماع الإنساني، إلا أنه يرى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها.

ارتكزت شهرة نظرة ابن خلدون في التاريخ على مقدمته، إذ وردت فيها لأول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنية على الأخذ بعامل المناخ والجغرافيا، وتأثير العوامل الخلقية والروحية في مجرى حوادث التاريخ. وقد قال ابن خلدون عن نفسه في مقدمته إنه مخترع طريقة مبتدعة في علم التاريخ والعمران، وذلك من حيث سعيه للبحث عن قوانين التقدم والانحلال القومي، **وقرر في تعريفه للتاريخ عدة أمور جوهرية:**

1 – إن التاريخ علم، وهو كأي علم له قواعده، سواء في المفهوم أو الصياغة النظرية للمفهوم، أو في الكتابة، أو آلية التحقيق.

2 – إن آلية التحقيق، أو لنقل عمل التاريخ ليست آلية حتمية، بل آلية تحويلية، بنت عناصر أساسية أبرزها طبيعة العمران في الزمن المعين والمكان المعين.

3 – إن الطريقة التأريخية ذات أسلوب نقدي خاص، تتحد عناصر الأساسية في: المؤرخ، ومفهوم التاريخ، وأسلوب الكتابة التاريخية، واستيعاب الخبر والوعي بما خلف الخبر من صلات غير منظورة للخبر ببيئته المكانية والزمانية.

4 – إن التاريخ يحوي عمقاً فلسفياً متعدد الأبعاد، يتجاوز حدود العمق في المفهوم، بما يكفي للتميز بين المفهوم المباشر للتاريخ، والمفهوم غير المباشر له.

5 – إن للتاريخ دوراً استقبالياً، فهو يهتم بالماضي، لا لذاته، ولكن للوعي وللمستقبل لطالما أن التاريخ عِبَر ، والعبر تعمل مع الآتي، لكي يكون كما نريد.

رأى ابن خلدون أن الاكتفاء بحدود نقل الأخبار هو ليس التاريخ، فالتسجيل هو الجانب السلبي فيه. أما إذا كان المطلوب هو التأريخ، فالتوجه يجب أن يتجاوز التسجيل ويذهب إلى معرفة لماذا وقع الحدث، وكيف جاءت الإخبار عنه، ولماذا تمت صياغة الخبر بهذا الشكل، وما هي النتائج التي تترتب على حركة التاريخ.

وعليه فأن بن خلدون يقول ان الذي يمارس كتابة هذا النوع من التاريخ هو فيلسوف؛ لأن عمله يقع أصلاً في حقل الفلسفة. فالعِلة، كما يراها ابن خلدون، حالة مستترة خلف الحدث، وإظهارها يستوجب مرونة يتزود به المعنيّ بالمعرفة في بعدها الماضي، ومرونة على قراءة الخبر. بمعنى تنشيط عملية ذهنية تحلل الخبر، وتبحث في خلفياته عن مبتغاها، والخروج بالحدث من دائرته الذاتية، بعد استيعابها إلى دائرة أوسع، هي عصر الحدث، أي التدرج في كشف ارتباطاته. ثم إخضاع كل المعلومات المتحصلة للتحليل والتدقيق، وإعادة تقديم الخبر في ضوء هذا البحث، بحيث يُفصح عن نفسه ويؤكد أنه هو الصورة الأقرب إلى الحدث لحظة وقوعه، ومن ثم الخروج بحكم تاريخي عام وشامل. فابن خلدون يعطي التاريخ دوراً للفعل في ذهن القارئ والتأثير فيه عن طريق تكوين قناعة لديه بأن ما يقرأ هو التاريخ. أن ابن خلدون فرّق بين نوعين من التاريخ، الأول: علم/ فن التاريخ في ظاهره، والثاني: علم/فن التاريخ في باطنه.

النوع الأول: عبارة عن سرد أحداث الماضي والكلام عن الدول المختلفة، كيف قامت واتسعت ثم زالت. هو -إذاً- التاريخ بمعناه العام.

النوع الثاني: هو فرع من فروع الحكمة أو الفلسفة؛ لأنه يبحث في أسباب الأحداث والقوانين التي تتحكم فيها. وهذا الوجه الآخر لفن التاريخ هو الذي يسمى اليوم بـ **فلسفة التاريخ** .

ثالثا: العصبية وبناء الدولة:

تقوم نظرية الدولة عند بن خلدون على أساس العصبية القبلية؛ لان انتصارها على غيرها متوقف على ذلك، لكن الدولة إذا استقرت وثبتت أركانها قد تستغني عن العصبية، ومفهوم العصبية هو ترجمة لمفهوم الولاء و الانتماء، وهو أساس الرابطة في العصر الحديث في القومية. فالعصبية هي الوحدة السياسية للدولة، باعتبار أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع والحاكم يزع بضعهم عن البعض، فلا بد أن يكون في كل اجتماع متغلب عليها بتلك العصبية وهذا المتغلب هو الملك.

كما ذكر بن خلدون أن الدولة لا تتوسع وتحكم مساحات شاسعة إلا إذا كان لها أصل ديني، أما رسالة سماوية أو اتباع تلك الرسالة (٢٤) ، ويستدل على ذلك بالفتوحات التي وقعت للعرب في صدر الإسلام، فكانت جيوش المسلمين في القادسية واليرموك قرابة ٣٠ ألف مقاتل في كل معركة منهما، وبلغ جيش الفرس ١٢٠ ألف، وبلغ جيش الروم ٤٠٠ ألف، ومع ذلك انتصر المسلمون. لذا فأن تفسير بن خلدون لانتصار المسلمين هو أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة، وقال أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم مستدلا بالحديث النبوي: (فما بعث الله عز وجل بعده نبيا بعده إلا في منعة من قومه)، ومن وقائع التاريخ يستدل بعهد الخليفة العباسي المأمون لعلي الرضا عليه السلام بولاية العهد، فعلى الرغم من أن ولي العهد الجديد شخصية دينية مرموقة إلا أن العباسيين عارضوا بيعته لأنه ليس من فرع العباس، بل من فرع آخر من فروع بني هاشم.

يعرف بن خلدون الحضارة بأنها: **"هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله ..."**، فالحضارة عنده تتبع الرفاهية وسعة العيش التي تمر بها الدول نتيجة الانتصارات والغنائم واستعمال أبناء الشعوب المغلوبة في خدمتهم وتلبية حاجاتهم الضرورية والكمالية.

ومفهوم الحضارة عند ابن خلدون لا يختلف عن المفهوم الشائع والمعروف عند العرب للحضارة، فكلمة الحضارة مشتقة من مادة (حضر)، والعرب يسمون المدينة حاضرة، وجمعها حواضر، وهو اسم مشتق من الحضور، بمعنى أن كل شيء من الضروريات والكماليات حاضر أمام سكان المدن، ومن مظاهر الحضارة المبنية على السيطرة والترف كثرة الزواج والإنجاب، ويضرب ابن خلدون لذلك مثلا، فعدد المسلمين في عصر النبوة والخلافة الأولى كان قليلا فهو لا يصل إلى (نصف المليون نسمة)، فلما انتقلت الدولة إلى طور التحضر وترفهه، زاد هذا العدد كثيرا، فكان عدد جيش المعتصم في معركة عمورية قد قارب (المليون مقاتل).

قسم بن خلدون المراحل التي تمر بها الدولة إلى خمسة مراحل، واصطلح على المراحل تسمية الأطوار، فيقول: **"وحالات الدولة وأطوارها، لا تعدو في الغالب خمسة أطوار"**.

الطور الأول: وهي المرحلة التي تتأسس فيها الدولة وتتم لها السيطرة على الدول الأخرى، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية الأموال، والدفاع عن حوزة الدولة وحمايتها، لا ينفرد دون العصبة بشيء، لان الانتصار والسيطرة قد تحققا بها.

الطور الثاني: وهي المرحلة التي ينفرد بالحكم فيها المسؤول الأول في الدولة دون العصبة، ويتخذ جنودا وحرسا خاصين يكبح بهم طموحات من له رغبة او تطلع الى الحكم ، ويمهد الأمور لأهل بيته لينفردوا بما بناه من مجد.

الطور الثالث : طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك والسيطرة، وهو ما تنزع إليه طباع البشر من الحصول على المال والجاه والخلود والذكر الجميل، فيجبي الأموال ويشيد الأبنية والمدن والمصانع، وينفق المال على حاشيته وصناعه، وجنوده ويميزهم بالملابس والشارات، ويباهي بهم الدول المسالمة، ويرهب الدول المحاربة في الاحتفالات وغيرها، والمسؤول الأول في الدولة يستقل برأيه ويعبد الطريق لمن بعده.

الطور الرابع الإعجاب بالأسلاف والاقتناع بطرقهم في إدارة الدولة، فيقلدهم ويحاكي أفعالهم، وقد سمى ابن خلدون هذا الطور طور القنوع والمسالمة.

الطور الخامس طور الإسراف والتبذير فيتلف صاحب الدولة كل ما بناه له أسلافه من أجل الملاذ والشهوات وإغداق المال على أصحاب السوء والأمور الجنسية، ووضع الأشخاص غير المناسبين في المناصب الخطيرة والحساسة في الدولة، فيتخلى عنه الكبار والمؤهلون والأسوياء من قومه لتخليه عنهم، ولا ينصرونه لهدمه ما بناه أسلافه، فتصاب الدولة بالهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تستطيع التخلص منه إلى أن تزول من الوجود.

ويصنف بن خلدون نوع الحكم إلى صنفين:

-**دولة شخصية** وهي حكم شخص واحد من أهل العصبية صاحب الملك الرئاسة مثل دولة هرقل، دولة كسرى، وهي محدودة زمنيا لمدة حكم الشخص.

-**دولة كلية** وهي مجموع الدول الشخصية التي ينتمي أصحابها إلى العصبية الواحدة، خاصة كانت أو عامة وهي مدة حكم عصبية ما أي أنها دولة كلية باعتبارها دولة عصبية خاصة من العصبيات العربية مثل، بني أمية، بني العباس، التي تعاقب فيها الملوك واحدا بعد واحدا في مدة طويلة قائمين على ذلك بعصبية النسب والولاء.

اما عمر الدولة، فقد شبه ابن خلدون الدولة بالكائن العضوي، إذ أن الكائن العضوي له عمر محدد والدولة كذلك، فيعتقد ابن خلدون أن أي دولة عمرها (120 سنة)، المكونة من ثلاث أجيال وعمر كل جيل هو أربعين سنة، وقد يزيد العمر الطبيعي أو قد ينقص وذلك في صورة نادرة أو أوضاع غريبة من الفلك، إذا أن مستنده إلى ذلك أمور عدة منها نظرية الأعمار نسبة إلى علم الفلك الذي يحدد العمر الطبيعي للشخص بالتالي يقيس عليه عمر الدولة، أيضاً أستشهد برأي المنجمين الذين قالوا أن عمر الشخص يتراوح ما بين (120-50 سمة)، إلا أن الغريب لم يشير بذلك إلى نص شرعي يدعم قوله، بل أنه أستدل من قول الله تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)، أن سن النضوج والكمال في النمو أربعين سنة بالنسبة للإنسان، كذلك بالنسبة للجيل من الأشخاص، ومن قول الله تعالى: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً . يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)، أستنتج من قصة تيه بني إسرائيل في سينا أربعين سنة دلالة على حقيقة انتهاء جيل وظهور جيل آخر. إلا أن تحديد عمر الدولة عند ابن خلدون لم يكن تحديداً مطلقاً، بل هو تحديداً نسبياً قياساً على أعمار ثلاث أجيال من الأشخاص.

إما سبب انهيار وتدهور الدولة للترف فيفسد الحكم ويضعف اقتصاديا الدولة وظهور أخلاق الرعية تسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة. ويقول ابن خلدون " **إن الضعف إذا نزل بدولة لا يرتفع** " فالمرء يولد ثم يكتمل نموه أي المراهقة ثم يهرم فيموت وعلي هذا الأساس تموت الدولة ويستشهد ابن خلدون في ذلك بالآية الكريمة ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**) .

المصادر:

1-عايد براك الانصاري، مهدي عبد الحميد حسين، "عوامل التحضر عند ابن خلدون (ت 808ه) وتوينبي: دراسة مقارنة"، مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، العدد:7، سامراء، 2017.

2-عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

3-سالم حاسر النصافي، فلسفة التاريخ عند بن خلدون، مجلة كلية الآداب، العدد:56، الجزء: 5، جامعة بنها، 2021.